أ.د. أنور وردة
مفكر اسلامي - سوريا

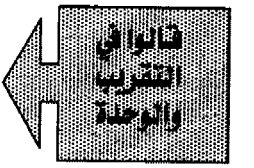

التكفير والتفسيق والتبديع
صفاتٌ موضوعيةٌ صريحة، أم مظاهرٌ طائفيةٌ قبيحة؟!*

بسم الله الرحمن الرحيم

من المحاور التي طرحها الإخوة المنظمون الدولي ٢٣ للوحدة الإسلامية محور يتحدث عن الحالة المنحرفة للتعامل بين أبناء المذاهب الإسلامية، ويرصد مظاهر وآثار هذا الانحراف، ويعدد منها: تحويل المذاهب إلى أديان- احتكار الحقيقة - نقل النزاع الفكري إلى الجانب العملي- التكفير الواسع والتفسيق والتبديع.

وقد اخترتُ أن أتحدث عن التكفير والتفسيق والتبديع، وأن أتساءل في البداية: هل التكفير والتفسيق والتبديع صفاتٌ موضوعيةٌ صريحة، أم مظاهر طائفيةٌ قبيحة؟

يكاد بعض الناس يشجبون تكفير فلان من الناس أو تفسيقه أو تبديعه أو لعنه مهما كانت الأسباب.

ويكاد هؤلاء يكتبون في الأماكن العامة وفي حافلات النقل: ممنوع التكفير كما يكتبون: ممنوع التدخين!

وأنا أريد أن أكون واضحاً وصريحاً منذ البداية فأقول: أنا لستُ ضدَّ التكفير ولا ضدَّ التفسيق ولا ضدَّ التبديع ولا ضدَّ اللعن!

---

* - ورقة مقدمة للمؤتمر الدولي الثالث والعشرين للوحدة الإسلامية الذي عقد بطهران برعاية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية عام ١٤٣١هـ.

ورد في اللغة العربية وفي القرآن الكريم أفعالٌ منها: كَفَرَ وفَسَقَ وبَدَعَ وابتدعَ ولَعَنَ ولُعِنَ، وببساطة شديدة أقول: من كفر فهو كافر، ومن فسق فهو فاسق، ومن فجر وظلم فهو ظالمٌ فاجر، ومن لعنه الله فهو ملعون، شاء من شاء وأبى من أبى!

يقول ربنا جلَّ جلاله في الآية (١٧) من سورة المائدة: لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ هو المسيح بنُ مريم!

ويقول في الآية (٧٣) من السورة ذاتها: لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ ثالث ثلاثة!

والله تعالى يأمر النبيَّ صلوات الله عليه في الآية (٧٣) من سورة التوبة أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظَ عليهم، ويصف الذين قالوا كلمة الكفر بأنهم كفروا بعد إسلامهم.

وفي الآية الثالثة من سورة المائدة يعدد الله تعالى بعض المحرَّمات على المسلمين فيقول: حرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلَّ لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردِّيةُ والنطيحةُ وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذكَّيتم وما ذُبِحَ على النُّصُبِ وأن تستقسموا بالأزلام، ذلكم فسقٌ!

وفي الآية السادسة من سورة الأنعام ينهى الله تعالى عباده عن أن يأكلوا مما لم يُذكر عليه اسم الله ويقول عن ذلك: وإنه لفسقٌ!

وفي الآية ٤٧ من سورة المائدة يقول: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون.

ويصف في سورة التوبة المنافقين بأنهم هم الفاسقون، وينهى في الآية ٢٤ من سورة النور عن رمي المحصنات ويقول: والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدةً ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً وأولئك هم الفاسقون.

كما ينهى ربنا جل جلاله عباده المؤمنين في الآية ١٩ من سورة الحشر عن نسيانه جلَّ جلاله فيقول لهم: ولا تكونوا كالذين نسوا اللهَ فأنساهم أنفسهم وأولئك هم الفاسقون.

ومن يتصفح كتاب الله تعالى يرى أنَّ القرآن الكريم يلعن في مواضع متعددة أناساً يستحقون أن يُلعَنوا.

جاء في الآية ١٥٩ من سورة البقرة قول الله تعالى: إنَّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون!

وجاء في الآية ٨٩ من سورة البقرة: فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين.

كما جاء في الآيتين ١٨ و١٩ من سورة هود: ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون.

ولم يقتصر اللعن في كتاب الله تعالى على الظالمين أو الكافرين أو الفاسدين المفسدين من بني آدم، بل جاوز ذلك إلى بعض الأشياء والجمادات، فلعنها إذ كانت تستحق اللعن!

قال تعالى في الآية ٦٠ من سورة الإسراء: وإذ قلنا لك إنَّ ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوِّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيرا.

إذن، لا مجال لإنكار واستنكار هذه الأوصاف التي لا تدل على مسبّة أو شتم أو عدوانية، لأنها (عندما تكون موضوعةً في مكانها الصحيح، ومُطلقةً على من تنطبق عليه حقاً) تكون توصيفاً صحيحاً صريحاً لما هو عليه فلان من الناس، وإلا، فهل يستطيع أحدٌ أن لا يقول عمَّن يقول إنَّ الله هو المسيح بنُ مريم، أو إنَّ الله هو ثالث ثلاثة إنه كافرٌ، وقد وصفه الله تعالى بأنه كافر؟

وهل نستطيع أن لا نقول عمَّن أكل لحم الخنزير أو شرب الدم أو قذف المحصنات المؤمنات الغافلات إنه فاسق، وقد وصفه الله تعالى بأنه كذلك؟!

إنَّ وصف هذا الإنسان بهذه الصفات يشبه وصفنا لفلان من الناس بأنه أعرج أو أعمى أو طويل أو نشيط، ولا يعني بأي حال شيئاً مفترى، بل يعني أنَّ فلاناً من الناس هو كذلك.. لا أكثر ولا أقل!

قد يسأل سائلٌ: لماذا أقول هذا الكلام؟ وما الهدف منه؟

وأقول: أنا أقول هذا الكلام لأني أعتقد أنَّ المشكلة ليست في تصنيف الناس إلى مؤمن وكافر.. مستقيم وفاسق.. مرحوم وملعون، لكنَّ المشكلة هي في أمور أخرى:

١- في الافتراء على الناس عند تصنيفهم.

٢- في جهل الناس بالدين.

٣- في التعامل الخاطئ معهم بعد تصنيفهم.

١- التصنيف الخاطئ للناس: لقد حدد القرآن الكريم والحديث الشريف صفات الكافرين والمنافقين والفاسقين والظالمين، ولا يجوز اختراع صفات لا وجود لها في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه، لأنَّ ذلك افتراءٌ على دين الله عز وجل.

لا يجوز أن نقول: إنَّ الذين يسبلون أيديهم في الصلاة كافرون!

أو: إنَّ الذين يسجدون على القرص فاسقون!

أو: إنَّ الذين يعتقدون بأحقية الإمام علي في خلافة النبي عليه الصلاة والسلام لهم عذابٌ أليم!

ولا يجوز تكفير من يعتقد بالغَيبة أو يؤمن بالأئمة أو يتفجع على شهداء كربلاء!

ومن جهة أخرى، لا يجوز لعن الصحابة الكرام الذين ناصروا النبي(ص) وأيّدوه ودافعوا عنه.

كما لا يجوز وصف الذين يتبعون ما جاء في المذهب الشافعي أو المالكي أو الحنفي بأنهم آثمون فاسقون فاجرون، لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم!

من الواضح أني أتكلم عن أتباع الفرقتين الأساسيتين من فرق مدرسة الإسلام: فرقة أهل السنة، وفرقة الشيعة.

لا يجوز أن يتبادل أتباع هاتين الفرقتين إطلاق الاتهامات بشكل عشوائي، لأنَّ ذلك يعني الخروج عن النصوص المقدسة، والافتراء على الله بما لم يأذن به!

لا أريد الهروب من الحقائق، ولا أريد تمزيق الصفحات السوداء من التاريخ، لأني لا أملك ذلك، ولا يملكه أحد آخر.

كان هناك في يوم ما من أيام التاريخ صراعٌ ونزاعٌ وقتلٌ وسلبٌ ونهبٌ بين بعض

المنتسبين لأهل السنة وبعض المنتسبين للشيعة.

وكان هناك كربلاء، وكان طعنٌ للإمام علي كرم الله وجهه، وكان هناك قتلٌ للإمام الحسين رضي الله عنه وأرضاه، وكان هناك سبيٌ وإساءةٌ وإجرامٌ بحق آل بيت رسول الله (ص).

كل ذلك كان فعلاً، لكنَّ أهل السنة ليسوا مسؤولين عما كان!

المسؤول عن ذلك هو من فعل ذلك، ويحمل معه المسؤولية من يقرُّه على فعله أو من يرضى بفعله.

أنا والله لا أرضى بما جرى، ولا أعرف شخصاً واحداً من أهل السنة لا يدمى قلبه ألماً لما جرى للإمام الحسين ولآل بيت النبي.

لا أعرف سنياً واحداً لا يدعو على قتلة الحسين بالقتل والهتك، ولا يعتبرهم مجرمين يستحقون من الله ما يستحقون.

ولا أعرف سنياً واحداً يقدِّس يزيد أو يذكره بالتقوى والصلاح، أو يبرؤه من الدم الذي لطَّخ تاريخه بالسواد!

لماذا ينظر بعض الشيعة إلى أهل السنة على أنهم شركاء يزيد في جرائمه، ويتعاملون معهم على هذا الأساس؟

هذا سؤال.

ولماذا يصرون أهل السنة على اتهام الشيعة بأنَّ لهم مصحفاً خاصاً لا يشبه المصحف الذي نعرفه، وبأنَّهم يقولون في الأذان الذي يرفعونه في مساجدهم: تاه الأمين تاه الأمين؟!

ذات يوم ألقيت أمام آية الله سماحة السيد علي خامنئي قصيدة في دمشق، وكان آنئذ رئيساً لجمهورية إيران الإسلامية، فأهداني مصحفاً لا أزال أحتفظ به، ولم أجد فيه اختلافاً عن المصحف الذي يعرفه كل المسلمين!

هذا المصحف هو المصحف الرسمي الذي تطل به جمهورية إيران الإسلامية على العالم وتقول: هذا هو مصحفنا، ولا مصحف عندنا سواه!

هكذا أفهم الأمر أنا شخصياً، خاصة وأني لم أجد لدى أحد ممن يتحدث عن مصحف فاطمة سوى إشاعة الاتهام العاري عن الدليل!

وذات يوم كنت أعترض أمام آية الله سماحة الشيخ محمد علي التسخيري على بعض الإساءات الشيعية لأهل السنة، وطرحت أمامه نموذجين لهذه الإساءات:

النموذج الأول هو كتاب (ثم اهتديتُ)، وهو كتابٌ يزعم مؤلفه أنه كان سنياً ثم اهتدى عندما صار شيعياً، ويمرّ بين دفتي الكتاب على كثير من الأمور التي ما أنزل الله بها من سلطان.

والنموذج الثاني هو بعض المقاطع من أشعار مظفر النواب، وهي مقاطع تتناول بعض الرموز الإسلامية بالإهانة والغمز واللمز، الصريحين أو غير المباشرين.

أجابني الشيخ التسخيري آنئذ إجابةً بسيطةً جداً، لكنها مهمة جداً، فقال: أولاً، صاحب كتاب (ثم اهتديت) ليس مرجعاً شيعياً، وليس رمزاً أو قائداً أو صاحبَ حوزة علمية! إنه رجلٌ أراد أن يكتب فكتب، وهو وحده المسؤول عما كتب، ولسنا مسؤولين عما جاء في كتابه.

أما مظفر النواب، فقد تناول الكبارَ والصغارَ بلسانه، ولم يترك قائداً سياسياً أو عسكرياً حياً أو ميتاً إلا ونفخ عليه من شعره، بما يرى هو أنّه يليق به، فهل نحن مسؤولون عما يكتب هذا الشاعر أو سواه؟!

في الحقيقة كلنا نسمع أنَّ الشيعة يسبون صحابة النبي (ص)، لكني، وقد جاوزت الخمسين من العمر، لم أسمع بأذني حتى الآن عالماً من علماء الشيعة أو رمزاً من رموزهم يقول في الصحابة شيئاً نكراً.

لو رجعنا إلى كلام الإمام الخميني رحمه الله، أو إلى كلام الإمام الخامنئي حفظه الله، أو إلى كلام السيد حسن نصر الله نصره الله، أو إلى كلام فلان وفلان من أمثال وأشباه هؤلاء الكرام، لما وجدنا فيه إلا ما يثلج القلب ويمد يد المحبة ويمتن عرى التواصل.

ولقد كان في صلاة الرئيسين بشار الأسد ومحمود أحمدي نجاد مع أهل دمشق بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف رسالة حب عملية وتأكيدٌ على وحدة الأمة المسلمة ولو كره الحاقدون.

هؤلاء هم السادة والقادة الذين نأخذ كلامهم وأفعالهم على محمل الجد، أما كلام العامة والغوغاء، فلم يكن يوماً في ميزان العقلاء، ولا يصح أن يُبنى عليه موقفٌ ولا قناعة، وهو ليس دليلاً على شيء، إلا على أنَّ جهداً كبيراً يجب أن يُبذَل لمحو الرواسب الخاطئة والمتخلفة من قلوب وعقول الناس.

عندما زرت إيران أول مرة سمعت الأذان في طهران وأصفهان، ودققت فيه عساي أسمع شيئاً عن الأمين الذي تاه، فلم أسمع إلا أنَّ الشيعة يضيفون إلى الأذان الذي نعرفه قولهم: أشهد أنَّ علياً وليُّ الله!

ماذا في هذا؟

وأنا أيضاً أشهد أنَّ علياً وليُّ الله!

ما أريد أن أقوله هو أنَّ بعثرة الاتهامات بدون دليل هو افتراءٌ، والله لا يحب المفترين، سواء كان المفتري سنياً أو شيعياً، مسلماً أم غير مسلم.

من المأثورات الجميلة المنقولة عن الإمام عليّ كرم الله وجهه قوله: لا تعرف الحقَّ بالرجال.. اعرف الحقَّ تعرف أهله.

٢- الفهم الخاطئ للدين: عندما يكون المسلم عاجزاً بسبب جهله عن التفريق بين ما يجوز وما لا يجوز.. بين الحلال والحرام.. بين الركن والواجب والمستحب والمكروه، يكون كل جديد عليه مرفوضاً ومستفزاً وعدوانياً، ولا غرابة في ذلك، فالإنسان عدو ما يجهله، وعندما يكثر ما يجهله، يكثر ما يعاديه!

الإسلام دينٌ يدعو لإطعام الطعام وإفشاء السلام، وخدمة عباد الله، وبالتقارب والتعارف، لا بالاقتتال والتمادي والتنادي إلى التعادي في كل وادي!

يدعو الإسلام إلى ذلك بين الأمم والشعوب والقبائل، ويأمر أن يكون الجدل بينهم بالتي هي أحسن، وأن تكون الدعوة بينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، لا بالسبِّ واللعن والافتراء والطعن، إلا الذين ظلموا وطغوا وبغوا وعاثوا في الأرض الفساد، فعندها يأمر الإسلام برفع العسف والضيم، وإن الله على نصر المظلومين لقدير.

من البدهي والمقبول أن يختلف كثيرٌ مما عند السنة عن كثير مما عند الشيعة، ومن

المهم أن يعرف أتباع هاتين الطائفتين أنَّ هذا الاختلاف لا يقذف بأحد الفريقين إلى خارج دائرة الإسلام، ولا يجعله من المغضوب عليهم ولا من الضالين المنحرفين، لأنَّ هذا الاختلاف هو في الأمور الاجتهادية لا في الأمور القطعية، وهذا الاختلاف موجودٌ بين المذاهب السنية المعتمدة، كما هو موجودٌ بين التفريعات المذهبية داخل المذهب الواحد.

عندما نفهم ديننا فهماً صحيحاً لا ننكر على الشيعة أن يضعوا القرص عند سجودهم، ولا ننكر عليهم أن يصلوا على الحصير، وأن يسبلوا أيديهم في الصلاة، وأن لا يصلوا التراويح، ومثل ذلك كثير، لأن هذه الأمور ليست من القطعيات التي لا يصح إسلام المرء إلا بها، بل هي اجتهاداتٌ للسادة الفقهاء فيها آراءٌ متعددة، ولا مشكلة في الاختلاف حولها.

هذا ليس فسقاً، لكنه فقهٌ، ومن لم يفقه دينه يقع في المحذور والمحظور.

وعندما نفهم ديننا فهماً صحيحاً لا ننكر على الشيعة أن يكون لهم موقفٌ مختلفٌ عن موقفنا من القضايا السياسية التي عصفت بالمجتمع الإسلامي بعد انتقال النبي (ص) إلى جوار ربه، فهذا ليس كفراً، ولا يترتب عليه شيءٌ في عالم العقيدة، بل هو سياسةٌ يمكن قبولها وفهمها ومعرفة أسبابها ودوافعها، وقبولها و رفضها بدون أية عقابيل شرعية!

وعندما نفقه ديننا لا ننكر على أهل السنة أن يحترموا جميع أصحاب رسول الله(ص)، وأن ينأوا بأنفسهم عن آثام صفين والجمل ويقولوا: تلك دماءٌ طهّر الله أيدينا منها فلا نخوض فيها بألسنتنا، كما لا ننكر عليهم تحريمهم للمتعة، أو عدم إيمانهم بالغيبتين: الصغرى والكبرى، أو بولاية الفقيه أو بعصمة الأئمة، لأن كل ذلك من الأمور الاجتهادية.

أركان الإسلام معروفة، وأركان الإيمان معروفة، ومعروفٌ أيضاً أنَّ في القرآن الكريم آياتٌ محكماتٌ وأُخر متشابهات، وآياتٌ قطعية الدلالة وآياتٌ ظنية الدلالة، وتفاسير تتفق على أمور كثيرة، وتفاسير تختلف على أمور كثيرة، وكل هذا لا يعني شيئاً سيئاً

طالما أنَّ الاتفاق على القطعيات قائم: فالله تعالى هو الرب الخالق، ومحمد (ص) هو النبي المرسل، والقرآن العظيم هو الكتاب المنزل، والصلاة والصيام والحج أركانٌ مفروضة، (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) آيةٌ مفصلية توضّح ما يجب اتباعه أو تركه، وما عدا ذلك: كلٌّ منهم يؤخذ منه ويُردُّ عليه!

٣- التعامل الخاطئ مع الناس بعد تصنيفهم:

بغض النظر عما ورد في الأسطر السابقة أريد أن أقول: كيف أمرنا الإسلام بالتعامل مع الآخرين: الفاسقين- الكافرين- الظالمين- المعتدين- الآثمين الفاجرين؟!

البحث طويلٌ، وله وجهٌ تاريخيٌ متعلق بظروف موضوعية لا مجال للخوض فيها الآن، وله وجهٌ شرعيٌ تكثر فيه التفاصيل والاجتهادات، لكنَّ الخلاصة هي أنَّ الله تعالى أمر المسلمين عندما كانوا في المرحلة المكيَّة أن يقولوا للكافرين: لكم دينكم وليَ دين!

وفي المرحلة المدنية أذن الله تعالى للذين ظُلِموا بقتال المعتدين الظالمين، واشترطت الدولة الإسلامية على مقاتليها أن لا يقلعوا شجراً ولا يقتلوا امرأة أو شيخاً أو عابداً متفرغاً للتبتل، وأن لا يذبحوا حيواناً إلا لمأكله.

كما أمر الإسلام المسلمين بحسن التعامل مع غير المسلمين الذين يسكنون مع المسلمين، وجعلهم في ذمة الله ورسوله، وهدّد من يخفر هذه الذمة بحرب من الله، ومن حاربه الله فقد حربه وقصمه في الدنيا والآخرة.

وأمر الله تعالى بالتعامل مع الفاسق وفقاً لفسقه، فمن يأكل الميتة أو لحم الخنزير فاسق، ومن يأكل مما لم يسمَّ عليه الله فاسق، ومن لم يحكم بما أنزل الله فاسق، ومن يشرب الخمر أو الدم أو يرمي المحصنات أو يعقّ والديه أو يقطع أرحامه فاسق، ولكل من أولئك الفاسقين حدٌّ وعقاب، وطريقٌ للرجوع إلى الصواب.

فإذا كان طريق الإسلام في التعامل مع الكفار والفاسقين هكذا، فكيف يجب أن يكون التعامل مع الأخ الشقيق الذي يؤمن بما نؤمن به، ويختلف عنا ونختلف عنه ببعض الأمور التي هي من الثانويات أو من القشور؟

التمزق الطائفي وفخُّ التكفير والتفسيق والتبديع أسلحةٌ في أيدي أعداء الأمة، وهي

أسلحةٌ تافهةٌ مضحكةٌ إذا استطاع أبناء الأمة أن يكونوا صفاً واحداً كما أمر الله تعالى، لكنها تنقلب إلى أسلحة فتّاكة فيها الدمار الشامل إذا مرَّت عليهم كما يريد أعداؤهم، ولن ينالوا عندئذ رضا الله، ولا احترام عباد الله.

العلاقة بين السنة والشيعة بشكل خاص، وبين المسلمين وغير المسلمين بشكل عام، يجب أن تكون محكومةً بأمور عديدة منها:

- العلم، لأنَّ الإنسان عدو ما يجهل.
- الحب، لأنَّ الحبَّ هو الوعاء الأمثل الذي يستطيع أن يضم كل الناس بسلاسة ورقة وحنان.
- الاحترام، لأنَّ الاحترام يعني أن يمتنع الإنسان عن الإساءة إلى أخيه ولو كان على خلاف معه في الرأي أو الطبع أو الفكر أو غير ذلك.
- المواطنة والخضوع للقوانين، فالقوانين المدنية التي تنظم شؤون الحياة وعلاقات الناس بين بعضهم البعض (بما لا يتناقض مع الشريعة الثابتة القطعية) تبقى اليوم هي الموئل والملاذ، وهي الحدُّ الذي يقف عنده الجميع بأمان وثبات وانتظام.

تتوازع المسؤوليةَ لتطبيق ما ذكرناه أعلاه، ولإشاعته كثقافة عامة جهاتٌ عديدة، منها الحكومات وأجهزتها الثقافية والتربوية، ومنها وسائل الإعلام والقائمون على إدارتها ورسم سياستها واستراتيجيتها، ومنها الأسرة عموماً والأبوان خصوصاً، ومنها المؤسسة الدينية بما فيها ومن فيها من علماء ووعّاظ وخطباء، ومنها المؤسسة الفكرية بمن فيها من كتّاب وشعراء وأدباء، والمؤسسة الفنية بمن فيها من ممثلين ومطربين ومخرجين ومسرحيين.

وباختصار: كلُّ قادة الرأي والمتنورون في المجتمع مطالبون بأداء أدوارهم في تعميم ثقافة التقارب والتحابب والتلاحم والتصدي لمحاولات التجزئة والتقسيم والشرذمة، وإلا فإنَّ ثياب الأمة إذا اشتعلت فلن ينجو من الحريق أحدٌ من أبنائها!

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.